سلسلة ذخائر التراث الأدبي المغربي (27)

ديوان العبدري

محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري الحاحي

(ت بعد سنة 700 هـ)

بسم الله الرحمان الرحيم

أنشد الشيخ الفقيه الأديب أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد بن مسعود العبدري وذلك في رجب الفرد سنة تسعين وستمائة معارضا لأبيات القاضي أبي الفضل عياض التي في كتاب الشفاء له

يا ساكني دار الحبيب عليكم ... مني سلام طيب النفحات

يهنيكم قرب الأحبة فارحموا ... صبابكم قد صد بالنزلات

كم ذا أعلل بالوصول إليكم ... قلبا شجيا مضرم الجنبات

قد نلتم قرب الحبيب فانتم ... أبدا لذلك طيبو الأوقات

أن كنتم أهل اليسار فأنني ... أرجو نماء بضاعتي المزجاة

حسبي فخارا أن مصباح الهوى ... من قلبي المفئود في مشكاة

فلأنثرن على ثرى آثاره ... من عقد جفني لؤلؤ العبرات

حتى أروي القلب من ظمأ به ... قاسيته في البعد طول حياتي

أعفر الخد المصون بتربة ... تزري بعرف المسك في النشقات

بدر الدجا بحر الندا فخر الورى ... وملاذهم في عرصة الحسرات

مالي سواه من المخاوف ملجأ ... أرجو خلاصي عنده ونجاة

صلى الاله وخلقه طرا على ... من فاح منه معطر الروضات

يندي وينفح بالعبير نسيمه ... ما شق نجم حالك الظلمات

وقال رحمه الله يمدح ملك البرين أبي يعقوب يوسف المريني

فمن مبلغ علياه عني من نظمي رسالة مستعد شكا ظلمة الظلم

ضعيف القوى أودت بأنضاء جسمه فياف برت أهوالها مصمت العظم

مهامه ينضين الفنيق وإن قضت على سبيل والت الجور في الحكم

إذا ضافها ضيف قرته بلحمه فلم يعدها إلا عريا من اللحم

وخيم فيها كل فظ إذا رأى بنية شخص لم يكفكف عن الهدم

يرى أن حكم النبت والناس واحد فما ينثني فيهم عن الخضم والقضم

ويرتاح للحجاج حين يراهم كليث طوى منه الطوى راح للضغم

فكلهم السفاف وهو بشؤمه على قبره كوم عظيم من الرضم

وأعجب من هذا ملوك –بزعمهم– وجودهم في الأرض شر من العدم

رضوا بأسام لامحصل عندها كطفل يرضى بالمحال من الزعم

إذا استصرخ المظلوم منهم معظما فقد طلب الفتوى إلى غير ذي علم

وإن يشتك مضطرا إليهم فقد شكا إلى غير ذي فضل فتى غير ذي فهم

ألا لاتطل شكوى فلست بمشتك إلى ملك البرين واسكت على رغم

فذاك الذي أفنى الطغاة بسيفه فلم يبق منهم من يشير إلى ظلم

أباد همو حتى بدا الغرب حضرة مطهرة من كل عيب ومن وصم

بذكراه فالهج تعتصم بسعوده إذا أنت لم تعصم بسيف له يصمي

هو المرء يغني حين يعطي وإن يصل تقل دكت الدنيا ولم يبق من رسم

إذا احتال مغتال اسم عدوه فصارمه الهندي يغني عن السم

وإن دان ذو ضعف بكيد مكتم فبالسيف يمحو الكيد لكن بلا كلم

له صارم يرنو بعيني محدق إلى كل من يخطر له الشر في وهم

أراق دماء الظالمين فقد غدت على حلة العلياء أبهى من الرقم

ترى سيفه في الحرب يهدي ويهتدي إذا ضل مايرمي وضل الذي يرمي

إذا رص في أمر بناه عزيمة فلا تخش من وهي ولاتخش من ثلم

يوافيك منه وافيا أو معاديا غمام يروي أو حسام له يصمي

لئن عذبت في السمع أمداح مجده فإن نداه الجم مستعذب الطعم

وإما حوى درا نظامي فإنها فضائله طرا ومالي سوى النظم

لقد لذ حتى قلت إن كنت أبتغي ثوابا به فهو النهاية في الظلم

ينيل يسارا من غدا الفقر حلفه ويولي افتقارا من تمول بالغشم

ولاغرو في الضدين أن جمعا به غنى وافتقار هكذا حالة اليم

يقيم بطبع الفضل أوزان نظمه فقد صين من كف لديه ومن خرم

وليس يعد الغنم مالا يحوزه إذا عده ذو البخل من أعظم الغنم

ولكن نفوسا قد عتت وتجبرت فحطمها وطء المقيد للهرم

وصيرها مملوكة بعد ملكها وحط علاها وهي أبعد من نجم

وعوضها من عزة الملك ذلة ومن صحة الأحوال منهكة السقم

إذا حل عزم المرء حزم بدا له رأى الحزم كل الحزم في صحة العزم

طغى الكفر حتى صده بجيوشه كما صد ذو القرنين ياجوج بالردم

بحمر وشقر كالدنانير لونها وشهب كبيض الصحف أو لونها ينمي

وقد شردت بالخوف منها عداتها فلم ترها جمعاء إلا من الدهم

فكم بطل حلف الأباطيل أبطلت وكم جرمت من قد تجرم بالجرم

وكم مارد مهما علا انقض نحوه شهاب من الفرسان أقصد من سهم

وكم صف صف في السلاسل منهم كما صف في الأرباق حاشية البهم

توزعهم ريب الزمان توزعا أرى حاسب الأعداد كيفية القسم

فأموالهم للنهب, والأهل للسبي وأرواحهم للنار والجسم للحطم

كذا يبتني المجد الرفيع وهكذا تضم خصال المجد في نسق النظم

فيا أيها الساري الغذ الأرض ليهنك أمن في ذراه من الظلم

ويهنك أن تحظى بقرب جنابه فتأمن من عرب هناك ومن عجم

حنانيك أبلغ نحوه لي رسالة تبلغ شكوى مستريم من الهم

وشد بالذي حبرته من مدائح يفوق بها الياقوت در من الكلم

مدائح يختال الزمان بذكرها صحائح ماتري بزور ولا إثم

إذا برزت في حلبة الشعر برزت وحاز سواها نعتي السكت واللطم

كعاب إذا لاحت سبت كل ناظر فيسلو بها عن ذكر هند وعن نعم

إذا جليت قام العيان بمدحها فأظهر تفنيد المشير إلى الذم

ولم ألف في مصر ولا الشام كفأها فأطرقت إطراق الشجاع من الغم

فأبلغ بها –نلت الأماني– أمانة ولا تظلمنها بابتذال ولا كتم

إلى الملك السامي صعودا على الورى وليثهم في الحرب والغيث في السلم

إلى من له كف إذا المزن أخلفت فما إن تزال الدهر ساجمة تهمي

إلى فاضل أعيا الأفاضل شأوه فمن مثله الدنيا أصرت على عقم

إلى يوسف سيف الإله الذي أتى لحسم العدا إن الحسام من الحسم

فدام ودامت في الصعود سعوده منيلا لمن يسمو له كل ما يسمي

مرقي موقي مستجارا مؤملا منيرا مبيرا للظلام وللظلم

عليا كريم السعي يرجى ويتقى مفيدا مبيدا في رضاه وفي الرغم

مصون العلا ما ضم در مديحه ورصع في بدء الحديث وفي الختم

وقال رحمه الله: ومما عرض لي نظمه بمدينة تلمسان –جبرها الله– قولي

تغربت عن أهلي إليك ومالي وأعرضت عن قيل عداك وقال

تمائل في دنياي –إذ أنت مطلبي– محب له شوق إلي وقال

سموت على قصد إليك بهمة ترى عيش كسرى مثل عيش دلال

ولاحت لي الدنيا فأبصرت عمرها ولو زيد أضعافا, كحل عقال

وما عيشها إلا كظل غمامة وما ملكها إلا كطيف خيال

وهل بعد أن أسدى إلي لطافا يقصر عن تبيانهن مقالي

وباشر قلبي باليقين مبردا حرارة إشكال أخل بحالي

أرى رافعا صوتي إلى غير جاهه وأبسط للمخلوق كف سؤالي؟

أبعد سطوع الشيب في ليل لمتي ونأي ضلالي بعد فيء ظلالي

أهيم بدنيا ماتساوي قلامة وأخضع مرتادا لنيل نوال؟

أبى ذاك لي قصد إلى الله صاعد وعلم سما بي فيه نحو كمال

فما أنا نحو النحو أسمو بهمتي وفي اللغو أخطار اللغات ببالي

ولا منطقي بطلت في علم منطق يعد حساما في مجال جدال

وليس كلامي في الكلام أقوده كما قيد صعب للشماس موال

ولا عارضت علم العروض عنايتي لأجله قبان نظم لآل

وأحسب تدقيق الحساب بطالة لإبطال وقت لايرد بحال

ولكنني مهما نحوت تفقها خلعت عذاري موضحا لخلالي

ألا لست أعني بالتفقه ماحوت دفاتر من ظنون رجال

ولكنه فقه علا عن تناقض وليس لآراء الورى بمجال

تريك اطرادا منه كل قضية أنابيب تبدو في متون عوال

قضايا جلايا مثلما لاح ساطع يصول بجند الليل أي صيال

قضايا إذا وفقت يشفيك حكمها وإلا فلا تعرض لطلب عضال

فلست لها في الكتب يوما مطالعا ولا سامعا فيها نظام مقال

وفي عقل ذي القلب المتيم رقمها يبين به كل أنوك سال

فإن أنت لم توصل لحال وصالها فدعني وإياها حليف وصال

وقال في مليانة

شباب لدى عهد الشبيبة قد عسا أعلل فيه النفس علي أو عسى

لعل ربوعا من حلاها عواريا تعود لها تلك المفاخر ملبسا

لعل نجوما كنت هالة بدرها ستجلو ظلاما حل أفقي فألبسا

لعل انتظام الشمل يرجع ثانيا ويعطف بالإحسان دهر بنا أسا

رماني زماني بالنوى من أحبة لبينهم عاد الأنيس معبسا

نأى عمر الحبر الإمام بحاضري فكيف ألاقي من زماني تأنسا

وقد حظيت أغمات منه بما جد تدرع من غر الفضائل ملبسا

لقد هنت حتى شط عني مزاره ونالت به أغمات مجدا مؤسسا

وكنت مقيلا للهداة تؤمه فصرت لأخلاط الغواة معرسا

وكنت لباغي الجود والعلم والعلم ملتقى فإن شئت مقراة وإن شئت مدرسا

وكم كنت للضرغام والظبي مألفا أنسيك إن أبصرت خيسا ومكنسا

أراغم ريب الدهر منه بما جد إذا ضاق خطب أو تفاقم نفسا

فجللت عن تلك الجلالة حلة وعوضت من تلك الأهلة حندسا

فها أنا أشدو إن نطقت تمثلا وليل همومي قد دجا بي وعسعسا

وبدلت قرحا داميا بعد صحة   لعل منايانا تحول أبؤسا

وقال رحمه الله في تونس

أنا الغادة الحسناء فاق جمالها فآلت: يمينا لاخطبت على زوج

إذا الغانيات ارتدن وصل بعولة فما بي —والافخر— إلى الزوج من حوج

أغادي إذا ماشئت ظبيا بقفرة وأطرق نون اليم في ظلم الموج

وفي لمكدود الحجيج استراحة فهم يردوني الدهر فوجا على فوج

وإني إلى البيت العتيق كسلم به يرتقي من في الحضيض إلى الأوج

وقال: وقد كان هذا المعنى عرض لي قديما فنظمته في بيت من قصيدة وزدت فيه معنى آخر وهو أن الشيب لما ولي قام بأعلى الرأس خطيبا، لما كان من شأن الوالي الخطبة والصعود لها على المنبر، وحسن أن يستعار ذلك للشيب لما كان نذيرا زاجرا، فقلت في ذلك

شبابي وال جاء شيبي بعزله   فقام بأعلى الرأس أي خطيب

قال: وقد نظمت بالقيروان قصيدة بعثت بها إلى ولدي محمد —وفقه الله– وهي هذه

أصخ سمعا أوصيك يابني وصية والد بر حفي

جرى القدر لنا ببين قضاء جاء من ملك علي

وقد فتت نواكم في فؤادي وأشجت بالأسى قلب الخلي

وأبدأت المآقي عن كراها دموعا فيضها مثل الأتي

ولولا أن حكم البين حتم يمر على المطاوع والأبي

لعاجلني الأسى بقضاء نحبي ووافتني النوى بردى وحي

ولكن كل جمع لافتراق ونشر العيش آخره الطي

فمر على المقابر باعتبار وسل تنبئك عن حي فحي

وقد شاهدت في الدنيا أمورا محرضة على نهج التقي

أمالك في تقبلها اعتبار يبين قبحها من غير عي

ألم تر ما حبتك وأنت طفل فنون أذى همي مثل الحبي

وذي جد أحلك من حشاه محل بشارة بعد النعي

وترك منازل وثقاف عم بكم بر ونائي أب حفي

وذاك وإن أذابك غير بدع فهذا دأبها مع كل حي

فكن بالله منها مستعيضا كفى عوضا به من كل شي

وكن متعففا عنها عيوفا وإن أعطتك قصدك دون لي

ولا تأسف لفرقتها ففيها وصال تواصل العيش الهني

هي الطلل المحيل ومابكاها سوى غاو يهيم بوصل غي

يبكي في منازل مقفرات ضلال سنه غيلان مي

ومازالت ترد الرفع خفضا وترمي بالسناد إلى روي

سراب إن نظرت تقل شراب ولم يظفر فتى منه بري

فلاتك يابني بها ولوعا وإن أبدت مطاوعة الأبي

هي العصيان شيمها ولكن تغر الغر نادرة العصي

وكن بالله ذائقة تقيا ولا تغبط بني سوى تقي

ونل بالزهد مرتبة المعالي فلم يزهد سوى عال سري

وليس سواه للأرواح روح يتيه به الفقير على الغني

فشد به يديك وكن ضنينا بوجهك أن تعرضه لكي

ولا تبذله للأطماع يوما فتخدشه بذا الخلق الدني

وباعد ما استطعت حليف دنيا تعلق حبلها من فرط غي

ولا يغررك أن أبدى خيالا إلى قرب يصير غير شي

فحظكما من الدنيا بلاغ إلى لحد يسوي كل حي

بني يسوؤني أن أراك عبدا لغير الواحد الصمد العلي

فكن عبدا له من غير شرك وإلا تأت بالأمر الفري

بني تسوؤني منك المعاصي فلا عمرت حلالك يابني

قبيح أن أكون عصيت ربي وتقفو إثر والدك العصي

يمر المشتهى كالبرق خطفا ويترك حسرة الأمد القصي

تزين بالحياء فليس وصف يزان به الفتى مثل الحيي

وجانب ما يقود إليه طبع يرى طبعا على الثوب النقي

وكن بالعلم ذا لهج فإني أجزتك واستجزت بكل حي

لكي تروي الحديث حديث عن الأشياخ ذوي فهم سني

مصابيح الدجنة لو تراهم رأيت بدور كل دجا دجي

لقيتهم وأنت هناك ثاو فيا للشكر للسعد القوي

محضتك يابني النصح مني وحق النصح للولد الرضي

وإن مد البقاء إلى لقاء كسوتك مايزينك في الندي

فترفل في حلى حلل تسامى إليها كل حبر ألمعي

وأرجو ذاك من إنعام ربي إلهي مالكي ثقتي وليي

وأقرأ من سلامي كل زاد عليك يفوح بالمسك الذكي

وأقرأ ضعفه في كل حين بلا أمر على خل وفي

يروح صبا جرت ويفوح روضا بكى الوسمي فيه مع الولي

وباكره النسيم غداة صحو فنشر نشره من بعد طي

ومن ذي العرش أسأل أن يوالي لكم صون الغدو مع العشي

وقال في أهل طرابلس

كأنهم من ضيق أفهامهم لم يخرجوا بعد إلى العالم

وقال في السفر

لم يحبب القلب مثل حبكم ولم تر العين شيئا دونكم حسنا

وقال في مسراتة

مساكن غصت بسكانها ولكن تراهن كالغامر

يظن بها الحسن ذو غرة وما حسن دار بلا عامر

وقال أيضا

لي اسم ولكن مسمى وراءه فلا تغترر إن كنت ذا فطنة باسمي

فكم طار في الآفاق صيت مشهر لمن ماله في صالح الفعل من قسم

وقال في برقة

أنا الغول غالت من يطور فناءها وتخدع بالألطاف طورا وبالبر

فإن أكلوا بري شربت نفوسهم وكم بين نفس المرء في الغدر والبر

وقال في الأسكندرية

ولولا حبيب حبه أضرم الحشا يصرفني شوقي إليه كما يشا

أهيم به حيا وميتا وإنني لأضمر من حبيه أضعاف ما فشا

ترنحني في ذكره أريحية كما اهتز غصن النسيم إذا نشا

تركت إليه دون من أحبة تصدع إذ فارقتهم مني الحشا

لما بت في أكنافها ليلة ولا خشيت هجيرا لافحا أن يعطشا

قال: وأنشدني –حفظه الله– لأخيه الفقيه العالم أبي العباس أحمد –رحمه الله– مما كتب إليه ملغزا

أبن مسرعا لفظة سطرت مقطعة من جميع النواحي

وأشكال احرفها بالسواء وألقابها حسب الاصلاح

تشاكل آحادها الألفين وتذكرهم بالقدود الملاح

ثلاثية ذات حرف فأصغ فإن الملاحي قليل الفلاح

ومعتلة الوسط ليست تصح وأول قائمة في الصحاح

ولو طلب الأصمعي نظيرا لها لم يفز قدحه في القداح

قال : فقلت مجيبا له:

ايا من تفرد في عصره وجلت مجاراته عن تلاح

عنيت نباتا له مغرس بأول ترجمة في الصحاح

وأهديت درا ليشهد أن بصدرك بحر الندى والسماح

وبالغت في صونه غيرة بلفظ يهاب كحد السلاح

وقد أذهب العبد إشكاله كما أذهب الليل ضوء الصباح

فإن فاز قدحي فأنت الإمام وجعلت قدما لنا بالفلاح

وقد سطرت نحوها لفظة مقطعة من جميع النواحي

ترى شكل أحرفها واحدا إذا انت جردتها بالتمام

وتزداد في النطق حرفا خفيا وقدما بدت في صدور الصباح

وإن خفيت عن غبي فكم يمكنها من نحور الملاح

فيا أيها الحبر زدنا فقد تميز صدرك بالانشراح

ومن رام شاوك يوما كمن نوى أن يطير بغير جناح

قال: ولما تأملت اللغزين استبان لي المراد منهما، ثم انزعجت للسفر فلما استقر بي القرار بقاعدة مصر، كتبت إليه في ذلك قصيدة وبعثت بها إليه، وقد زدت فيها بعد ذلك أبياتا وهي هذه:

أيا فاضلا قد سما للسماح فلم يصغ اذنا إلى قول لاح

هنيئا لك المجد من فاضل هدى من نحاه طريق الفلاح

سما صنوك الفذ في علمه إلى غاية واثقا بالنجاح

فأدركها ساميا عاليا وخصص فيها بفوز القداح

وأجريت من خلفه ثانيا عنان جواد عظيم المراح

فادركته فائزا حائزا بما قد منحت كريم امتداح

فاوضحت لغزا دجا ليله ومذ لاح ازرى بضوء الصباح

وذلك لفظ له أحرف غرائب في خفية واتضاح

فاولها لايرى شكله وثالثها، وهما في الصحاح

هما يذكران ولايصبران كعنقاء مغربة في النواح

وأعجب بشيء له صحة عديم الوجود لعين التماح

وثاني الحروف يرى ظاهرا وعلته مالها من براح

وكيف بذي صحة قد خفي ضنى وعليل بدا كالصحاح

ومن شاء إبرازها لفظة بغير ارتياء وغير انتزاح

فشعر زهير لها مسرح أناخت ببعض القوافي الملاح

ومن عجب غنها إن تزد بحرف عدت عمم طريق انشراح

وأولئك في الحين تعبيسة تريك محيا بغير سماح

وساء المذاق وناء الشقاق وحق الفراق بغير انفساح

ومهما حذف اخير الحروف فقد فهت حقا بلفظ افتتاح

وإن زدته الحذف من اول   فحرف قبيح سليل القباح

وإن زدت محذوفها ىخرا   فحذف يزين نحور الملاح

وعن شئت تبيانه فأتين   بقلب افتتاح تفز باقتراح

وفي نسخة أخرى زيادة هذه الأبيات

وأخفيتم اللغز في لفظة   تكل الشبا من رؤوس الرماح

أشرتم إليها بأوصافها   لمن هو من سكرة الجهل صاح

وقد سطرت لفظة مثلها   سواء فزدها بفرط ارتياح

وقل: هي مقلوب ماسطرت   أناملنا مابه من تلاح

وفي غربنا لفظة صرفت   مشهرة كاشتهار الصباح

ولكنها فظة جهمة   إذا أقبلت قوبلت بالصياح

وتألف أشكالها في القباح   وما عرجت بالوجوه الصباح

وإن صحف اللفظ من لغزكم   بدت سمجة حقها في اطراح

وأخرى على شرطكم قد أتت   تزاد إليهن وفق اقتراح

انتهت الزيادة.

فخذ من مقر بفرط القصور يفر إني العجز خوف النطاح

صفي لعلياكم ذي وداد كما قد علمت كليم النواح

فسامح محبا صفا وده وصنه بصفحك عن لحو لاح

وأقرأ مني عليكم سلاما كريم الغدو كريم الرواح

وقال في هجاء أهل القاهرة

وما اللجج الملاح بمرويات ويلفى الري في النطف العذاب

وقال رحمه الله

ذكرت بيوم الفطر غزاتي   وقوس النوى ترمي الحشا أسهم الكرب

فراخا نأى أنسي محلهم   وصحبا كراما ضمهم أفق الغرب

فأفطرت من قبل الغدو بعبرة   غنيت بها يومي عن الأكل والشرب

وقال أيضا

وطالما فتكت بالدار عين ولم تحفل بجيشهم أن كان جرارا

وكم حليف اغترار خالها ثقة لم يمس إلا وغيم الغدر قد دارا

وقال أيضا

بذلوا غنى الدارين في محض العدم ندموا ولكن حين لايغني الندم

فلقد تباغضت الجوارح منهم فترى الأكف يقوم فيها الملتدم

والظفر يقرع سنه لكنه إن أمكنت ضرسا أنامله كدم

وقال في مكة المكرمة

بلد نحوه يحن الرسول وبه علقت قديما عقول

بلد إن رآه يوما مشوق قال: لمني، أو لا تلم يا غذول

لو رأى من سناه غيلان مي بارقا لم تشقه تلك الطلول

أسفي أن حرمت سكنى حماه وعداني عنه الزمان المطول

يا لحظ بخسته في ثناء عن مغان لها حديثي يطول

لاح لي مرة كما زار طيف أو وداع إذا استقل الحمول

كنت أرجو به شفاء غليلي فإذا فيه لي جوى وغليل

أسعداني بذكره يا خليلي ي فقد يسعد الخليل الخليل

وعداني ومنياني وصولا فقصارى منى الفؤاد الوصول

يا لربع غدا به ربع صبري وهو مستعجم الرسول محيل

منذ فارقته، فدمعي سيل والأسى غيمه وخزي مسيل

ودهى بعده بعي لساني لست أدري من بعد ما أقول

وقال أيضا

ألا ليت شعري هل يساعدني الوقت وتدني لي الأيام مانحوه تقت

وهل لي إلى تلك المعاهد عودة بسكنى مغان، قربها كل ما اشتقت

مغان حداني الشوق والوجد نحوها مقيما فأعطيت المقادة وانسقت

وكنت على ألا أفارق ربعها ولكنني من شؤم ذنبي عوقت

كأن لم يكن لي في المحصب منزل به من ضنى جسمي وقلبي أفرقت

ولم يصف عيشي بالصعود على الصفا ولا أنني من صفو حال بها ذقت

ولا رحت كالنشوان من طرب به ومن غير كاسات الهوى ماتفوقت

أباري غصون البان إما تمايلت لأن صرت مجموعا وكنت تفرقت

أطالع من ذاك الجمال مطالعا بها طال في جنح الدجا ما تأرقت

وكنت كغصن قد ذوى من صدى به فلما حللناها رويت وأورقت

وقال في بئر زمزم

ولكن له في النفس موقع فرحة   تفاجئ بعد اليأس قلب كئيب

ترى صور الأحباب مرآة صفوه   فيطفي من الأحشاء لفح لهيب

وقال رحمه الله في المدينة المنورة

مقام للعلاء به مقام وفيه انجاب عن ضوء ظلام

به مثوى السيادة غير شك به للدين والدنيا انتظام

به قمر السعود ثوى مقيما فسار بنور غرته الأنام

به الإشراك في شرك تهاوى وكان به لمدته انصرام

به الإيمان أمن من نحاه فأضحى لايذام ولايضام

به حلت نجوم الأفق طرا فصار لها بساحته التئام

به أهل المعاني والمعالي إمام في الشريعة أو همام

به الآمال دانية فما إن يشط به على الباغي مرام

به سحت سحائب كل علم كما بالوبل قد هطل الغمام

به سجعت على أغصان جود قواف مثلما سجع الحمام

علا قذيت به عين الثريا فخالف غربها درر سجام

ومجد ناطح الشعرى فأضحت بذاك لها اضطراب واضطرام

به قال الكمال: نظمت سلكا فليس بغير طيبة لي نظام

به النور الذي عم البرايا هداهم للمسالك فاستقام

عليه صلاة ربي قد حباه سيادة من عليها والسلام

وقال أيضا

ومن الوفاء بعهد حب ظاعن لثم الطلول ووقفة بالمنزل

وقال في الروضة الشريفة

أرنت بالعويل وبالنحيب مرجعة على ربع الحبيب

أقامت ليس تبرح منتداه وقامت لا تمل من الدؤوب

تشير إلى علوم قد حوتها إشارة عالم فطن لبيب

وقد لبست بدكنتها حدادا وجد لنا الأسى عري السليب

غدت تجري مدامع من رآها بما أبدت من الحال الغريب

وقل لها البكاء ولو أمدت غزار دموعنا مهج القلوب

فقل للقلب صعد لي زفيرا وقل للعين بي ظمأ فصوبي

ونح شجوا وسح بالوجد دمعا ورح نشوان من خمر الكروب

وقم فاندب، وذب جزعا وشوقا وصله من الشروق إلى الغروب

كفى بتواصل العبرات شغلا يعوقك عن مديح أو نسيب

القصيدة النبوية

فوق إلى غرض وسدد سهم السرى تقصد وتحظ بمقصد

أوتر قسيا من مطي إن رمت رنت كما رنت قسي المقصد

شم سيف عزم لايفل ذبابه قرع الزمان، ولاقراع الفدفد

هم بالعلاء بهمة تعلو على سمك السماك وسام سامي الفرقد

أجب النداء وجب بكل تنوفة قفرا تنكر للدليل المرشد

رافق رفيق العزم واترك من ونى خلف البطالة نائما في مرقد

شمر ثيابك للثواب فقد بدا أمما له أم البصير المهتدي

بادر بدور العمر قبل أفولها واركض بجدك في الفضاء الجدجد

سامر سمير النجم في سمر السرى واجف التخيل من خيال المرقد

كن في مضاء العزم فعلا ماضيا واترك لسوف مسوفا خلف الغد

حتى تحل بذروة المجد التي فاتت مرام الحائر المتردد

حتى تحل بمنزل ما حله إلا نزيل طلوع سعد الأسعد

حتى تفوز بمطلب في مرقب ترك المسامي في الحضيض الأوهد

حتى تواصل في وصالك رتبة أعيت على عزمات كل معرد

حتى تنال منال كل ممجد   حتى تنال منال كل مسود

حتى تشاهد مشهدا شهدت له   بالفضل أنباء تروح وتغتدي

حتى ترى مرأى يجل كماله   عن أن يقيده لسان مقيد

حتى ترى مالا يحيط بمدحه   نغمات شاد أو ترنم منشد

حتى تقبل من بساط العز ما   خفقت له أحشاء كل موحد

حتى يجرد من مخيط ثيابه   حلف الرفاهة فاغتسل وتجرد

حتى تلبي داعيا ما مثله   داع يجاب من المكان الأبعد

حتى ترى ذا نعمة متبذلا   وترى الملوك غدوا بزي الأعبد

حتى تحل بمكة وحلالها   خير الحلال فحط رحلك واقعد

حتى تطوف بكعبة ما مثلها   من مسجد يبنى ولا متعبد

حتى تقبل ركنها الفرد الذي   ضم المواثيق التي لم تجحد

حتى ترى حجرا منيرا أسودا   وأعجب -فديتك- للمنير الأسود

حتى ترى في ماء زمزم شارعا   فأطل لتجلو ذلك القلب الصدي

حتى تخب إذا سعيت من الصفا   وإليه فعل الخادم المتودد

حتى تبيت مبيت عبد في منى   متبذلا تنوي وقوفك من غد

حتى تعاين في الوقوف عجائبا   مهما يلاحظها فؤادك يرعد

حتى ترى جمعا بجمع جامعا وتجد في رمي الجمار من الغد

حتى تحلق أو تقصر في منى حتى تفيض بفيض ذاك المورد

حتى تودع مكة وربوعها قلق الحشا لفراق ذاك المعبد

حتى ترى برق الهداية لامعا يبدو لعين الناظر المتفقد

حتى ترى نهج الولاية لائحا لم يخف إلا في لحاظ الأرمد

حتى تربع طيبة وربوعها فيطيب وقتك في المكان الأسعد

حتى ترى نجم السعادة طالعا حتى ترى قبر النبي محمد

فهناك سر أخو الظواهر ظاهرا وأخو الحقائق في المقيم المقعد

وبه قلوب قد تنفس غمها وبه قلوب ذات عيش أنكد

ما للمحق وللسرور وكم غدا عمل كثير ساقطا لم يصعد

ما للمحق وللسرور وإنه يفري ظلام الغيب طول المسند

ما للمحق وللسرور وقد رأى في معهد الأحباب من لم يعهد

ما حال من أمسى غريم غرامه وافى فلم يردد هواه بمعهد

بانوا فأوحشت الديار لبينهم ومضوا وخلفنا بحال مجهد

وجدي أناخ على الفؤاد بجنده فثوى وناري في الحشا لم تخمد

يا عين جودي بالدموع عليهم تحكي نظيم اللؤلؤ المتبدد

يا عين جودي بالدموع وأتبعي منهن أصفى مورد بمورد

يا عين جودي بالدموع فإنها علم على شوق المشوق المكمد

يا عين جودي بالدموع وسلسلي سلسالها ورديه أعذب مورد

يا عين جودي بالدموع هواملا لاتسأمي أن تسجعي وسط الندي

يا عين جودي بالدموع فإنها أشفى لغلة ذي اشتياق مبعد

جودي وسحي لاتشحي وانثري درر الجفون وواصليها واصردي

يانفس للدمع الغزير فصوبي طول الحياة وللزفير فصعدي

هذي حلال المصطفى وربوعه هذي منازله فقومي واقعدي

لاعذر للأحشاء لم تضرم بها لاعذر للعبرات لم تتبدد

لاعذر للأجسام لاتبلى بها لاعذر للأحزان لم تتجدد

لاعذر في ترك النحيب خلالها حتى يروي ذو الهوى القلب الصدي

كذب الهوى من حلف زعم مدع أصغى لنوح حمامة لم يسعد

كذب الهوى من حلف زعم مدع نحو الحبيب وربعه لم يسبد

كذب الهوى من أتى ربع الهوى فاختار فرقته ولم يتقيد

يثني الأعنة راجعا أدراجه شوقا عراه لزينب أو مهدد

ياربع قد أخليت ربع تصبري ياربع قد أبليت حبل تجلدي

ياربع ربعك في فؤادي آهل لم تعفه ريح الزفير المصعد

ياربع إن ساواك عندي منزل طول المدى فأنا المسيء المعتدي

ياربع أنساني هواك منازلي حتى سلوت -ولم أخن- عن مولدي

ياربع والاك الزمان بلينه بردت دمعي فيك كل مبرد

ويقل أن أبكي دما الأحبة كانوا نجوما في حماك لمهتد

ياربع قادتني إليك محبة ملأت ضلوعي بالسعير الموقد

إن كنت لم أزمع جوارك برهة فأنا من أوصاف الهوى صفر اليد

ونويت أني إن عدمت مساعدا صابرت فيك توحدي وتفردي

وحلفت لا طاوعت فيك مفندا تبا لمصغ فيك نحو مفند

لكن قضاء الله عاق إقامتي وأقامني نحو الترحل مقعدي

لولا موانع ما قضاه وصبية تبكي لكل مسجع ومغرد

خلفتهم في غربة تبكي لهم ورق الحمام بكل غصن أملد

في منتهى الغرب الذي مادونه إلا تلاطم موج بحر مزبد

ماكنت أخطو نحو غيرك خطوة حتى أوفي مضجعي في ملحدي

لكنني إن يقض لي بلقائهم أفن الزمان بعيش صب مبعد

شوقا إليك مكررا ذكراك في ضوء النهار وجنح ليل أربد

ياصاح كرر ذكرهم وحديثهم في سمع ذي القلب المشوق وردد

ياصاح لاتأثر سوى آثارهم وأثر مآثرهم وأمل واعدد

سكن بما تحكيه بعض بلابلي كم منة لك إن فعلت وكم يد

نقر ونقب عن مناقب نقبهم ومتى ترد وصف الجواد فجود

حق لآل المصطفى ولصحبه ولربعه حر الثناء فنضد

وانثر نثار الجفن منك فإنه حق على من زار ربع محمد

خير الأنام رفيعهم وربيعهم وشفيعهم في هول يوم الموعد

خير الأنام حسيبهم ونسيبهم وطبيبهم من كل داء مقصد

خير الأنام نبيهم ووليهم وعليهم أعظم به من سيد

قد أم أمته علاء مجادة فعلت، ولولا مجده لم تمجد

بهر الخلائق منه نور باهر أعشى، بلى أعمى عيون الحسد

أعيا بلاغة ذي البلاغة مدحه فالواصف النطيق مثل المفرد

نور جلا ظلم الضلالة فانجلت وبه استنار فؤاد ذي قلب هدي

أربى على الشمس المنيرة بالضحى فغدت لديه شبيهة بالفرقد

أضحى المسيح مبشرا بقدومه وغدا به قس خطيب المشهد

ولطالما هتفت بذاك هواتف في سجعها أو في قريض منشد

وكذا سطيح عند شق ضريحه والى البيان به ولم يتردد

كم كاهن باحت به أسجاعه من قبل منع السمع للمتمرد

أو راهب في ديره متعبد لم يخل منه معالم المتعبد

قصر اللسان عن الوفاء بحقه إن رمت ذاك تكل عنه وتجهد

فانظم بقدرك لا بقدر كماله وارفع صحيفة غارم لم يجحد

واخضع خضوع مقصر عن واجب واجأر جؤار حليف روع منجد

وأفض غروب الدمع منك وقل له: خذ الخدود ومر لا تتردد

وامدد إليه يد السؤال لعله يرثي لها فتعود ملآن اليد

ياخير من وطئ الثرى قدم له ياخير ناطق حكمة في مشهد

ياخير أهل الأرض يا أرضاهم ياخير سام في السماء ممجد

ياخير مولود تقدم كونه ياخير من هو بعد لما يولد

ياخير من نيط الرجاء بجاهه ياخير مأمول لخطب مكمد

ياخير من قرأ الكتاب مرتلا ياخير من هجر الكرى لتهجد

إني أتيتك قاصدا ومسلما مستسلما لتغربي وتوحدي

أفري المهامه لم يلتني عائق (عجلان ذا زاد وغير مزود)

هاجرت عن أهلي إليك ومعشري لتجيرني من شر ما اجترحت يدي

وأتيت بابك كي تؤمن روعتي وقصدت جاهك في بلوغ المقصد

وجمعت في قصدي إليك مآربي فعل الفقير أتى الكريم لموعد

ثقة بفضلك لا اغترار بالمنى والغيث إن ينزل بأرض يقصد

حاشاك أن يأتي جنابك قاصد فيعود دون تمكن بالسؤدد

كم ذا ندبت مآثما بمآثم أرجو لها عفوا بقصدك سيدي

كم حاجة عمرت حشاي ومطلب أرجو لديك قضاءها وكأن قد

ما إن رفعت إلى سواك مطالبي ما إن حللت سوى نداك بمورد

لم أرج ذا ملك ولا ذا إمرة وإذا تهم النفس قلت لها ابعدي

فمن استنار بنور شمس باهر ألقى الذبال فأوقدي أو أخمدي

لما حللت ذراك دام بهاؤه وعلمت أني منه جد مؤيد

ناديت دهري: لا أخافك مرة (فابرق بأرضك مابدا لك وارعد)

أنا ضيف ربي ثم ضيف نبيه أمن إلى أمن فأوعد

وانهض بحق ليس يجحد أوكد حق النهوض لحق ربك أوكد

واهجر وجر أو عد إلى وصل امرئ ماإن يبالي نال وصلك أوعد

انا في حمى من لايخيس بذمة فخر الورى خير البرية أحمد

أنا في حمى من لايوفي مدحه شعر الكميت ولا أغاني معبد

أنا في حمى من لايحيط بمدحه لفظ البليغ ولا يراع مجد

انا في حمى من هد كسرى ذكره ومحا الرسوم على قديم الفرقد

بدر الدجا, بحر الندى, فخر الورى مأوى الضعيف وملجأ المستنجد

قصر امتداحي عن عظيم خلاله هذا وقد أسكت كل مقصد

يانفس إنصافا قصرت عن المدى فقفي على قدم الحياء وأنشدي

هذا رسول الله تحفة قادم مزجي البضاعة سائل مسترفد

فاصفح بفضلك واقبلنها إنها جهد المقل وبلغة المتزود

وعليك من عطر السلام مردد كالنور فاح بساحة الروض الندي

مني ومن أبوي جاد عليهما عفوا الإله بمسكن وبملحد

ومن آخوتي، وقرابتي، وصحابتي ومجاورتي، ومحاورتي في مسجد

ومن امرئ كلف بحبك مولع يرجا نوالك خصهم بتفقد

ومن الأنام صغيرهم، وكبيرهم موجودهم طرا ومن لم يوجد

ماهاج ذكراك مغرما في مغرب فقرى إلى شرق أديم الفدفد

ذا مقلة تهمي إليك ولوعة مهما ترش بعبرة تتوقد

وقال في عسقلان

تأمل كتاب الكائنات تأملا به أبدا تلهى عن اللهو واللغو

وزد كل محو السطور تدبرا فقانون علم النحو في ذلك المحو

وقال أيضا

مقل من الأموال إذ لايضمها ولكنه من كل مأثوره مثر

سري، غني النفس، ماتستفزه زخارف دنياه بقل ولا كثر

وقال هذه الأبيات وقد أدركه عيد الفطر بمدينة فاس

قالوا نعيد في فاس فقلت فرحا فقلت ما لي بها دار ولا عطن

فاس ومكناسة وطنجة وسلا عندي كزديك لا أهل ولا وطن

بغداد قفر إذا لم تحولي سكنا والقفر بغداد إن أهلي بها قطن

وقال أيضا

دنياك مهما اغتررت فيها كجيفة عرضت للنهاب

إن شئتها فاحتمل إذاها واصبر على خلطة الكلاب

عليك النصح رده بكل حي   وإن ألفيت وارده فحي

فمعظم ديننا نصح البرايا   كذاك أتى الحديث عن النبي

وقد نصح الجماد لذي اعتبار   وكف اولي النهى عن كل غي

لسان الحال أبلغ من بليغ   وفي ذي الجهل أعيا من عي

وقدما سارت الأمثال عنها   وما زدنا سوى حرف الروي

فأصغ إلى نصائحها مصيخا   وأيقظ جفن ندب شمري

مسحت الأرض غربا ثم شرقا   أسائل عن عواقب كل حي

فقالت: ما سؤالك بعد علم   ألم ترهم جميعا تحت طي

تسائل والحوادث مفصحات   صوائح قد أصمت بالدوي

فصافحت التصفح مستبينا   فما ألفيت أرضا ذات عي

مررت بجاحة فسألت عمن   أناخ بآخر الغرب القصي

فقالت: خلفوني ذات شجو   أبكي بالغداة وبالعشي

أناخ بهم زمان ليس يرثي   لغيلان، ولا يعني بمي

وقد أهدى الكسوف إلى أناس   تراهم كالبدور لدى الندي

وجئت السوس أسأل وهو أقصى فقال: غليك عن كمد شجي

ألم ترني وحيدا من أناسي كما عطلت كعاب منحلي

وطفت بلاده أرضا فأرضا تخبرني بموتهم الوحي

ووافينا تلمسانا فأبدت على اهل مضوا شجو النعي

كذا مليانة أبدت عويلا لأهل ضمهم جرف الآتي

ورحت إلى الجزائر ذا سؤال فقيل: سألت عن هي بن بي

دع التسآل عمن حل تربا وبادر منهج البر التقي

وقالت لي بجاية: أنت خلو (فياويح الشجي من الخلي)

تسائل عن أمور ظاهرات عقرت لها ظهورا للمطي

وجئت بني ورار وهي عمري أثارت كامن الشجن الخفي

وميلة لم تمل عن نهج نصح أصخ إن كنت ذا فهم سني

ومن شاء الحديث فقل قسنطي نة تروي حديث المغربي

وبونة قد أبانت من أبانت صروف الدهر من سام سري

وفي خولان أطرقت اعتبارا (جرى الوادي فطم على القري)

وباجة بالبوائح قد أباحت وأمحل روضها من بعد ري

ولما جئت تونس وهي خود زهت بجمالها وبحسن زي

سألت عن الألى هاموا إليها فكم بر بها منهم حفي

فقالت: ما أرى منهم أنيسا وشر الوصل وصل الآدمي

وجئت القيروان فجئت قفرا يجسب صداه بالصوت الشجي

وقابس قد نزفت بها سؤالا فكانت مثلها سيا بسي

ورحت إلى طرابلس فقالت: رمت أهلي الحوادث عن قسي

وفي زديك مسقط كل قفر بيان بالخطاب المعنوي

يقول: صحبت قبلكم أناسا غدوا لسهام دهري كالرمي

وكم رمت لدي عظام شخص منيب، فاضل، بر، تقي

وباحت بالنداء قصور سرت فأورت زند فكر الألمعي

وقالت لي: أقمت هنا زمانا أشاه عبرة في كل حي

وكم نشرت علي بنود ركب عليهم غابة من سمهري

فما طال المدى إلا قليلا وقد عافاهم مر الآتي

رأيت الدهر يسحت كل حي يكر على الجبان مع الكمي

وقد برقت ببرقة لامعات تلين عريكة القلب القسي

وسل فسطاط عمرو عن نواه وسل عن جوهر مولى الشقي

بقاعدة الديار ديار مصر وسل بعبيدهم والقرمطي

وسل أم القفار بمن طوته فكم من فاضل فيهم رضي

وكم حلت قوى من حل فيها وكم حالت حلى وجه وضي

وكم ضخم يموج من امتلاء غدا نضوا بها مثل النضي

بها صرف الزمان يكون صرفا فكم ناع حوته وكم نعي

وسل في أيلة برا وبحرا وينبع سل بمنقطع ثوي

وإن تعطف لطيبة ليت عنس فعرج إنها بيت الروي

وقل أين الأحبة ليت شعري أيخفي الترب أقمار السمي

وقفت هناك معتبرا سؤولا أخا جفن رو وحشي ظمي

بجمع ما به إلا مشوق إذا ماسيم بيع بلا نسي

فقلت لها: فديتك اين أوس؟ وأين أخوه معتنق الكمي

فقالت: ويك قد ذهبا لأمر عظيم الشأن في وجه قضي

وكم قد راح يعدهما منون بأوسي وراح بخزرجي

فيا عجبا تسائلني بأوس وحسبك واعظا قبر النبي

وفي الدهناء باح ولم يداهن لسان الحال بالسر الخفي

فسل فيها منازل عافيات كوشم لاح في كف الهدي

وسل بدرا بعير من قريش وعن فرسانها وسط الركي

وجئت خليص أسأل عن نجي من الآفات في الدنيا سري

فقالت: ماسمعت بمشرقي نجا من صرفها أو مغربي

وكررت السؤال ببطن مر فقيل: ضللت عن نهج سوي

فلا وأبيك مافي الأرض حي وقي سهم الحتوف ولا ابن حي

وشأن الدهر حل وارتحال وبطش بالعدو وبالولي

وكم أعدى الضعيف على القوي مدل، والفقير على الغني

ولما جئت مكة قمت فيها أسائلها بكعب أو لؤي

فقالت قد سطا بهما منون وبعدهما أناخ على قصي

وصال عليهم شخصا فشخصا فسل، إن السؤال جلاء عي

وما نكل الردى عن هاشمي ولا أنف الردى من باهلي

ولا مازت عساكره قديما حنيفا مسلما من جاهلي

فما لك سائلا عن واضحات تبدت للذكي، وللغبي

أما دارت على دارا صروف كسرن عماد كسرى الفارسي

وقد أنحت على الفاروق جهرا وعثمان وبعد على علي

وفي السبطين جئ بكل نكر على كفي طليق أو دعي

وما راعت عياذ أبي خبيب ببيت الله والحرم العلي

وما عبأ الردى ببغام ريم ولا بزئير ليث قاصري

وما أبقى على شيخ وكهل ولا غض الشباب ولاصبي

ولا ذو العلم خصص من جهول ولا ذو الرشد ميز من غوي

بمالك الإمام غدا منيخا وأحمد والإمام الشافعي

وبلد فكره من كل حبر وقط لسان طلق لوذعي

وما إن خام عن وعل بنيق ولا في قفرة عن أخدري

نفوس الخلق يشرب ليس يروي بوسمي يصوب ولا ولي

يشق القفر أهدى من قطاة وليل النقع أجرأ من كمي

وما جاب القفار بأرحبي ولا شق الغبار بأعوجي

وليس يني يبدد كل نظم وليس يني يذوب كل ني

تراه إلى الورى يخطو الهوينى مخاتلة لهم كمسير في

وما دارى لمنطقه جريرا ولا هاب القوافي من عدي

وما حابى لصنعته حبيبا ولا أرضى المفاخر في الرضي

وما أعفى من الأحداث عفوا ولا طرفا يصان بأتحمي

ولا غمرا يصوب بكل ري ولا ذمرا يصول بمشرفي

ولا ملكا تدين له البرايا ولا عبدا تزمل في كسي

إذا حان الحدى من حين حين فرى في السابر يحشى الرمي

وما عرف الكبيس فزاد يوما ولا أجرى الشهود على النسي

فسل بالناسئين ولا نساء وسل عمرا بوالده لحي

ولا تطمح بعينك نحو سام بهمته إلى أقصى الرقي

فأرقى الناس منزلة كسهم يكون هويه سبب الهوي

ولا يغررك من دنياك وصل ففي الأمثال (أغدر من بغي)

فقلت: لقد نصحت بكل معنى حقيق أن يصاخ له حري

وقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن النداء لغير حي

فقالت: قد عهدت إليك نصحا فوفك المهيمن من وصلي

وإن الرحيل من بلاد (الحاجة)   على مثلي فرض وقد عظم الهول

وما محنة إلا وتنسيك أختها   وما فتنة إلا ويدخلها الغول

المصادر:

رحلة العبدري (مطبوعة)

نبث البلوي (مطبوع)

الوجادات عبد القادر زمامة (مجلة دعوة الحق)

المتعة والراحة في اخبار حاحة : إد ابراهيم التامري طبع